النوع الثاني الأربعون
معرفة كتاب اللغة من فوائد

الأولى: قال ابن فارس في فقه اللغة -باب القول على الخط العربي وأول من كتب به-: يروى أن أول من كتب الكتاب العربيّ والسريانيّ والكتب كلها آدمُ -عليه السلام- قبل موته بثلثمائة سنة، كتبها في طين وطبخه، فلما أصاب الأرضَ الغرقُ وجد كل قوم كتابًا فكتبوه، فأصاب إسماعيل -عليه السلام- الكتاب العربي.

قلت: هذا الأثر أخرجه ابن أَشْتَة في كتاب المصاحف بسنده عن كعب الأحبار.

ثم قال ابن فارس: وكان ابن عباس يقول: أول من وضع الكتاب العربي إسماعيل -عليه السلام- وضعه على لفظه ومنطقه.

قلت: هذا الأثر أخرجه ابن أَشْتَة والحاكم في المستدرك من طريق عكرمة، عن ابن عباس، وزاد أنه كان موصولًا حتى فرقه بين ولده، يعني: أنه وصل فيه جميع الكلمات ليس بين الحروف فوق هكذا: بسم الله الرحمن الرحيم، ثم فرقه بين ابنيه هميسع وقيذر.

ثم قال ابن فارس: والروايات في هذا الباب تكثر وتختلف.

قلت: ذكر العسكري عن الأوائل في ذلك أقوالًا، فقال: أول من وضع الكتاب العربي إسماعيل -عليه السلام- وقيل: مُرَامِر بن مُرَّة، وأسلم بن جَدَرَة؛ وهما من أهل الأنبار، وفي ذلك يقول الشاعر:

كتبت أبا جاد وحُطِّي مرامر ... وسوّدت سربالي ولست بكاتب[1]

وقيل: أول من وضعه، أبجدُ وهوّز وحطي وكلمن وسعفص وقرشت، وكانوا ملوكًا فسمي الهجاء بأسمائهم.

---

(١) البيت من الطويل، لم نقف عليه.

وأخرج الحافظ أبو طاهر السلفي في الطيوريات بسنده، عن الشعبي قال: أول العرب الذي كتب بالعربية: حرب بن أمية بن عبد شمس، تعلم من أهل الحيرة، وتعلم أهل الحيرة من أهل الأنبار.

وقال أبو بكر بن أبي داوود في كتاب المصاحف: حدثنا عبد الله بن محمد الزهري، حدثنا سفيان، عن مجالد، عن الشعبي قال: سَألْنَا المهاجرين من أين تعلمتم الكتابة؟ قالوا: تعلمنا من أهل الحيرة، وسألنا أهل الحيرة: من أين تعلمتم الكتابة؟ قالوا: من أهل الأنبار.

ثم قال ابن فارس: والذي نقوله فيه: إن الخط توقيف؛ وذلك لظاهر قوله -تعالى-: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ * عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٤، ٥]، وقوله -تعالى-: ﴿ن ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: ١].

وإذا كان كذا فليس ببعيد أن يوَقَّف آدم -عليه السلام- أو غيرُه من الأنبياء -عليهم السلام- على الكتاب، فأما أن يكون مخترع اخترعه من تلقاء نفسه، فشيء لا يُعْلَم صحته إلَّا من خبر صحيح.

قلت: يؤيد ما قاله من التوقيف ما أخرجه ابنُ أَشْتَة من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: أول كتاب أنزله الله من السماء "أبو جاد".

وأخرج الإمام أحمد بن حنبل في مسنده، عن أبي ذر: أن النبي ﷺ قال: **" أول من خط بالقلم إدريس عليه السلام "**[1].

قال ابن فارس: وزعم قوم أن العرب العَارِبَة لم تعرف هذه الحروف بأسمائها، وأنهم لم يعرفوا نحوًا ولا إعرابًا، ولا رفعًا ولا نصبًا ولا همزًا، قالوا: والدليل على ذلك ما حكاه بعضهم عن بعض الأعراب أنه قيل له: أتهمز إسرائيل؟ فقال: إني إذن لَرَجُلُ سوء قالوا: وإنما قال ذلك؛ لأنه لم يعرف من الهمز إلَّا الضغط والعصر، وقيل لآخر: أتجرُّ فلسطين؟ فقال: إني إذن لقوي! قالوا: وسمع بعض فصحاء العرب ينشده:

---

(١) كشف الخفاء: ١: ٣١٤.

نحـــن بنـــي عَلْقَمَـــة الأخيـــارا[١]

فقيل له: لم نصبت بَني؟ فقال: ما نصبته، وذلك أنه لم يعرف من النصب إلَّا إسناد الشيء.

قالوا: وحكى الأخفش عن أعرابي فصيح أنه سُئل أن ينشد قصيدة على الدال فقال: وما الدال؟ وحكى أن أبا حية النميري سئل أن ينشد قصيدة على الكاف، فقال[٢]:

كفـــى بالنـــأي مـــن أســـماءَ كـــافِ ولـــيس لحبهـــا إذ طـــال شـــاف[٣]

قال ابن فارس: والأمر في هذا بخلاف ما ذهب إليه هؤلاء، ومذهبنا فيه التوفيق فنقول: إن أسماء هذه الحروف داخلةٌ في الأسماء التي أعلم الله -تعالى- أنه علمها آدم -عليه السلام- وقد قال -تعالى-: ﴿ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ [الرحمن: ٤]؛ فهل يكون أولُ البيان إلَّا علم الحروف التي يقع بها البيان؟ ولم لا يكون الذي علم آدم الأسماء كلَّها هو الذي علمه الألف والباء والجيم والدال؟ فأما من حكى عنه الأعراب الذين لم يعرفوا الهمز والجر والكاف والدال، فإنا لم نزعم أن العرب كلها مَدرًا ووبرًا قد عرفوا الكتابة كلَّها، والحروف أجمعها، وما العرب في قديم الزمان إلَّا كنحن اليوم، فما كل أحد يعرف الكتابة والخط والقراءة، وأبو حية كان أمس وقد كان قبله بالزمن الأطول من كان يعرف الكتابة ويخط ويقرأ، وكان في أصحاب رسول الله ﷺ كاتبون، منهم: عثمان وعلي وزيد وغيرهم، وقد عرضت المصاحف على عثمان فأرسل بكَتِفِ شاة إلى أبيّ بن كعب فيها حروف فأصلحها، أفيكون جهل أبي حية بالكتابة حجة على هؤلاء الأئمة؟ والذي نقوله في الحروف هو قولنا في الإعراب والعروض، والدليل على صحته هذا وأن القوم قد تَداولوا الإعراب أنا نستقرئ[٤] قصيدة الحطيئة التي أولها:

---

(١) الرجز في الصاحبي غير منسوب.

(٢) هو: أبو حية النميري، سبق.

(٣) البيت من الوافر، وهو مفرد في ديوانه.

(٤) نستقرئ: نستتبع.

شـــــاقتكَ أظعـــــان لليـــــ ـــــلى دون نـــــاظرةٍ بـــــواكرْ[1]

فنجد قوافيها كلها عند الترنم والإعراب تجيء مرفوعة، ولولا علم الحطيئة بذلك لأشبه أن يختلف إعرابها؛ لأن تساويها في حركة واحدة اتفاقًا من غير قصد لا يكاد يكون.

فإن قال قائل: فقد تواترت الروايات بأن أبا الأسود أولُ من وضع العربية وأن الخليل أول من تكلم في العروض.

قيل له: نحن لا ننكر ذلك، بل نقول: إن هذين العِلْمين قد كانا قديمًا، وأتت عليهما الأيام وقلاّ في أيدي الناس، ثم جددهما هذان الإمامان، وقد تقدم دليلنا في معنى الإعراب، وأما العروض فمن الدليل على أنه كان متعارفًا معلومًا قول الوليد بن المغيرة منكرًا لقول من قال إن القرآن شعر: لقد عرضته على أقْرَاء الشعر، هَزَجِه ورَجَزه، وكذا وكذا، فلم أره يشبه شيئًا من ذلك، أفيقول الوليد هذا وهو لا يعرف بحور الشعر! وقد زعم ناس أن علومًا كانت في القرون الأوائل، والزمن المتقادم، وأنها دَرَست وجددت منذ زمان قريب، وترجمت وأصلحت منقولة من لغة إلى لغة، وليس ما قالوا ببعيد، وإن كانت تلك العلوم بحمد الله وحسن توفيقه مرفوضة عندنا.

فإن قال: قد سمعناكم تقولون: إن العرب فعلت كذا ولم تفعل كذا: من أنها لا تجمع بين ساكنين، ولا تبتدئ بساكن، ولا تقف على متحرك، وأنها تسمى الشخص الواحد بالأسماء الكثيرة، وتجمع الأشياء الكثيرة تحت الاسم الواحد.

قلنا: نحن نقول: إن العربَ تفعل كذا بعد ما وطّأناه أن ذلك توقيف، حتى ينتهي الأمر إلى الموقف الأول.

---

(١) البيت من قصيدة له وبعده:

في الآلِ يَحفِزُهـــــا الحُـــــدا ةُ كَأَنَّهـــــا سُـــــحُقٌ مَـــــواقِر

والبيت من مجزوء الكامل. شاقتك: أورثتك الشوق، الأظعان: النساء في الهوادج، ناظرة: ماء لبنى عبس.

ومن الدليل على عِرْفان القدماء من الصحابة وغيرهم بالعربية كتابتُهم المصحف على الذي يعلله النحويون في ذوات الواو، والياء، والهمز، والمد، والقصر، فكتبوا ذوات الياء باليا، وذوات الواو بالألف، ولم يصوروا الهمزة إذا كان ما قبلها ساكنًا في مثل: الخبء والدفء والملء، فصار ذلك كلّه حجة، وحتى كره من كره من العلماء ترك اتباع المصحف.

انتهى كلام ابن فارس.

وقال ابن دريد في أماليه: أخبرني السكن بن سعيد، عن محمد بن عباد، عن ابن الكلبي، عن عوانة قال: أول من كتب بخطنا هذا وهو: الجزم مُرَامِر بن مُرّة وأسلم بن جَدَرَة الطائيان، ثم علموه أهل الأنبار، فتعلمه بِشْر بن عبد الملك أخو أكيدر بن عبد الملك الكندي صاحب دُومَة الجَنْدَل، وخرج إلى مكة، فتزوج الصهباء بنت حرب بن أمية أخت أبي سفيان، فعلّم جماعة من أهل مكة، فلذلك كثر من يكتب بمكة في قريش، فقال رجل من أهل دومة الجندل من كندة يَمنُّ على قريش بذلك:

لا تجْحَدوا نَعْمَاء بِشْرٍ عليكمو ... فقد كان ميمونَ النقيبةِ أَزْهَرَا

أتاكم بخط الجَزْمِ حتى حفظتمو ... من المال ما قد كان شتى مبعثرا

أتقنتمو ما كان بالمال مُهمَلًا ... وطامنتمو ما كان منه منفرا

فأجريتمُ الأقلام عَوْدًا وبَدأةً ... وضاهيتمو كتَّاب كسرى وقيصرا

وأُغْنيتمو عن مُسْنِدِ الحي حِمْيَر ... وما زَبَرت في الصحف أقيال حميرا[1]

وقال الجوهري في الصِّحاح: قال شَرْقي بن القَطامي: إن أوَّل من وضع خطنا هذا رجال من طيٍّ منهم مُرامر بن مرة، قال الشاعر:

تعلمت باجاد وآل مرامر ... وسودت سربالي ولست بكاتب

وإنما قال: "آل مرامر"؛ لأنه قد سمى كل واحد من أولاده بكلمة من "أبي جاد" وهم ثمانية.

---

(١) الأبيات من الطويل، لم نقف عليها.

وقال أبو سعيد السِّيرافي: فصَّل سيبويه بين "أبي جاد" و«هوَّز» و«حطى»؛ فجعلهن عربيات، وبين البواقي فجعلهن أعجميات، وكان أبو العباس يجيز أن يكون كلهن أعجميات، وقال من يحتج لسيبويه: جعلهن عربيات؛ لأنهن مفهومات المعاني في كلام العرب، وقد جرى أبو جاد على لفظ لا يجوز أن يكون إلَّا عربيًّا تقول: "هذا أبو جاد"، و"رأيت أبا جاد"، و"عجبت من أبي جاد"، قال أبو سعيد: ولا تبعد فيها العجمة؛ لأن هذه الحروف عليها يقع تعليم الخط بالسرياني وهي معارف، وقال المسعودي في تاريخه: قد كان عدة أمم تفرقوا في ممالك متصلة؛ منهم المسمى بـ"أبي جاد، وهوَّز، وحطي، وكلمن، وسعفص، وقرشيات"، وهم بنو المحصن بن جندل بن يصعب بن مدين بن إبراهيم الخليل -عليه السلام-.

وأحرف الجُمَّل هي أسماء هؤلاء الملوك وهي الأربعة والعشرون حرفًا التي عليها حساب الجُمَّل، وقد قيل في هذه الحروف غير ذلك، فكان «أبجد» ملك مكة وما يليها من الحجاز، وكان «هوز» و«حطي» ملكين بأرض الطائف، وما اتصل بها من أرض نجد، و«كلمن» و«سعفص» و«قرشيات» ملوكًا بمدين، وقيل: ببلاد مضر، وكان «كلمن» على أرض مدين وهو ممن أصابه عذاب يوم الظُّلَّة مع قوم شعيب، وكانت جارية ابنته بالحجاز، فقالت ترثي «كلمن» أباها بقولها:

كلَمُـــونٌ هـــدَّ رُكنـــي ... هلكـــه وسْـــط المحلَّـــهْ
سـيد القـوم أتـاه الـ ... ـحتـف ثَـاوٍ وَسْـطَ ظُلَّـهْ
كونـت نـارًا فأضـحت ... دار قـومي مُضْـمَحِله[1]

وقال المنتصر بن المنذر المديني:

ألاَ يـا شـعيب قـد نطقـت مقالـة ... أتيـت بهـا عمـرًا وحـي بنـي عمـرو
هُـمُ ملكـوا أرض الحجـاز بأوْجُـه ... كمثـل شـعاع الشـمس في صـورة البـدر
وهُـمْ قَطنـوا البيـت الحـرام وزينـوا ... قطـورًا وفـازوا بالمكـارم والفخـر

(١) الأبيات من الرمل.

ملـوك بنـي حطـي وسـعفص في النـدي وهــوّز أربــاب الثَّنِيــة والحِجــر[1]

وقال الخطيب في المتفق والمفترق: أخبرنا علي بن المحسِّن التَّنُوخي: حدثنا أحمد بن يوسف الأزرق: أخبرنا عمي إسماعيل بن يعقوب بن إسحاق بن البهلول: حدثني أبو الفوارس بن الحسن بن منبه أحمد اليربوعي: حدثنا يحيى بن محمد بن حشيش المغربي القرشي: حدثنا عثمان بن أيوب من أهل المغرب: حدثنا بهلول بن عبيد التجيبي، عن عبد الله بن فرّوخ، عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم، عن أبيه قال: قلت لابن عباس: معاشرَ قريش، من أين أخذتم هذا الكتاب العربي قبل أن يُبعث محمد ﷺ، تجمعون منه ما اجتمع، وتفرقون منه ما افترق مثل الألف واللام؟ قال: أخذناه من حرب بن أمية، قال: فمّمن أخذه حرب؟ قال: من عبد الله بن جُدْعان، قال: فممّن أخذه ابن جُدعان؟ قال: من أهل الأنبار، قال: فممن أخذه أهل الأنبار؟ قال: من أهل الحيرة، قال: فممّن أخذه أهل الحيرة؟ قال: من طارئ طرأ عليهم من اليمن من كندة، قال: فممّن أخذه ذلك الطارئ؟ قال: من الخفلجان بن الوهم كاتب الوحي لهود -عليه السلام-.

وفي فوائد النَّجَيْرَميّ بخطه: قال عيسى بن عمر النحوي: أملى عليَّ ذو الرُّمة شعرًا، فبينا أنا أكتبه إذ قال لي: أصلح حرف كذا وكذا، فقلت له: إنك لا تخطّ، قال: أجل، قدم علينا عراقي لكم، فعلّم صبياننا؛ فكنت أخرج معه في ليالي القمر، فكان يخط لي في الرمل فتعلمته.

وقال القالي في أماليه: حدثني أبو المياس، قال: حدثني أحمد بن عبيد بن ناصح، قال: قال الأصمعي: قيل لذي الرُّمة: من أين عرفتَ الميم لولا صِدْقُ مَنْ يَنْسُبُك إلى تعليم أولاد الأعراب في أكتَاف الإبل؟ فقال: والله ما عرفتُ الميم، إلَّا أني قدِمت من البادية إلى الريف، فرأيت الصبيان وهم يجوزون بالفِجْرم في الأُوَق، فوقفت حِيالهم أنظر إليهم، فقال غلام من الغِلمة: قد أزَّفتم هذه الأوقة، فجعلتموها كالميم، فقام غلام من الغِلمة فوضع فمه في الأُوقة فَنَجْنَجه، فأفْهقها، فعلمت أن الميم شيء ضيق فشبهت عين ناقتي به، وقد اسلَهمَّت وأعيت،

(١) الأبيات من الطويل، لم نقف عليها.

قال أبو المياس: «الفِجْرم»: الجوز، قال القالي: ولم أجد هذه الكلمة في كتب اللغويين ولا سمعتها من أحد من أشياخنا غيره.

و«الأُوقة»: الحفرة، وقوله: «أزَّفتم»، أي: ضيقتم، و«نَجْنَجَه»: حَرّكه، و«أفهقها»: ملأها، و«المِنْجم»: العقب، وكل ما نتأ وزاد على ما يليه فهو «مِنْجم» أيضًا، و«اسْلَهَمّت»: تغيرت، و«المسلهمّ»: الضامر المتغير.

فائدة:

قال الزَّجاجي في شرح أدب الكاتب: روي عن ابن عباس، في قوله -تعالى-: ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ [الأحقاف: ٤]، قال: الخط الحسن، وقال -تعالى- حكاية عن يوسف -عليه السلام-: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥]، قال: كاتب حاسب، وقال -تعالى-: ﴿يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ [فاطر: ١]، قال بعض المفسرين: هو الصوت الحسن، وقال بعضهم: هو الخط الحسن.

وقال صاحب كتاب زاد المسافر: الخط لليد لسان، وللخَلَدِ تَرجمان، فرداءَته زَمَانة الأدب، وجودته تبلغ بصاحبه شرائف الرتب، وفيه المرافق العظام التي مَنّ الله بها على عباده فقال -جل ثناؤه-: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ * ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ [العلق: ٣]، وروى جبير عن الضحاك، في قوله -تعالى-: ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ٤]، قال: الخط، وقيل في قوله -تعالى-: ﴿إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥]، أي: كاتب حاسب، وهو لمحة الضمير، ووحي الفكر، وسفير العقل، ومستودع السر، وقيد العلوم والحِكم، وعنوان المعارف، وترجمان الهمم. وأما قول الشيباني: ما استجدنا خط أحد إلَّا وجدنا في عوده خَوَرًا، فهل يسف إليه الفقهاء، ويتجافى عنه الكتاب والبلغاء؟ ولإيثاره أبينه، حرم أجوده وأحسنه.

ولما أعجب المأمون بخط عمرو بن مسعدة، قال له: يا أمير المؤمنين، لو كان الخط فضيلة لأوتيه النبي ﷺ، ولئن سرّ بما قاله عن ابن عباس فقد أنكره عليه كثير من عقلاء الناس، إذ الأنبياء -عليهم السلام- يجِلُّون عن أشياء ينال غيرهم بها خصائص المراتب، ويُحْرِز بالانتماءِ إليها عقائل المواهب، ومن أهل الجاهلية نفر ذو عدد كانوا يكتبون، والعرب

إذ ذاك من عزّ بزّ، منهم: بشر بن عبد الملك صاحب دُومة الجَنْدَل، وسفيان بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، أبو قيس بن عبد مناف بن زهرة، وعمرو بن عمرو بن عدس.

وممن اشتهر في الإسلام بالكتابة من عِلْية الصحابة: عمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، وأبو عبيدة، وأبيّ بن كعب، وزيد بن ثابت، ويزيد بن أبي سفيان، وأقسم بالقلم في الكتاب الكريم، وأحسن عديّ[١] حيث شبه به قرن الرِّيم:

تُزْجِي أغَنَّ كأنَّ إبْرَةَ رَوْقِهِ ... قَلَمٌ أصاب من الدّوَاة مِدَادَهَا[٢]

وهو أمضى بيد الكاتب من السيف بيد الكميّ، وقد أصاب ابن الرومي[٣] في قوله شاكلة الرمي:

كذا قضى الله للأقلام إذْ بُرِيَتْ ... أن السيوف لها مذ أُرْهِفَتْ خَدَمُ[٤]

---

(١) هو: عدي بن الرقاع العاملي (٩٥ هـ / ٧١٤ م): عدي بن زيد بن مالك بن عدي بن زيد بن مالك بن عدي بن الرقاع من عاملة. شاعر كبير، من أهل دمشق، يكنى أبا داود. كان معاصراً لجرير، مهاجياً له، مقدماً عند بني أمية، مدّاحاً لهم، خاصة بالوليد بن عبد الملك. لقبه ابن دريد في كتاب الاشتقاق بشاعر أهل الشام، مات في دمشق.

(٢) البيت من قصيدة مطلعها:

عَرَفَ الدِيارَ تَوَهُّماً فَاِعتادَها ... مِن بَعدِ ما شَمِلَ البِلى أَبلادَها

والبيت من الكامل.

(٣)ابن الرومي (٢٢١ - ٢٨٣ هـ / ٨٣٦ - ٨٩٦ م): علي بن العباس بن جريج أو جورجيس، الرومي. شاعر كبير، من طبقة بشار والمتنبي، رومي الأصل، كان جده من موالي بني العباس. ولد ونشأ ببغداد، ومات فيها مسموماً قيل: دس له السمَّ القاسم بن عبيد الله -وزير المعتضد- وكان ابن الرومي قد هجاه. قال المرزباني: لا أعلم أنه مدح أحداً من رئيس أو مرؤوس إلا وعاد إليه فهجاه، ولذلك قلّت فائدته من قول الشعر وتحاماه الرؤساء وكان سبباً لوفاته. وقال أيضاً: وأخطأ محمد بن داود فيما رواه لمثقال (الوسطي) من أشعار ابن الرومي التي ليس في طاقة مثقال ولا أحد من شعراء زمانه أن يقول مثلها إلا ابن الرومي.

(٤) البيت من قصيدة مطلعها:

إن يخدم القلمَ السيفُ الذي خضعتْ ... له الرقابُ ودانت خوفه الأممُ

والبيت من البسيط.

وكان المأمون يقول: لله دَرُّ القلم! كيف يحوك وشي المملكة؟ ووصفه عبد الله بن المعتز فقال: يخدم الإرادة، ولا يمل الاستزادة، فيسكت واقفًا؛ وينطق سائرًا على أرض بياضها مظلم وسوادها مضيء.

وقال أرسطو طاليس: عقول الرجال تحت أسنان أقلامها. وقال علماؤنا: إن أول من خط بالقلم إدريس -عليه السلام- فمتى وضع الخط العربي وسُطِّر المسند الحميري.

وقد ذكر أن لغة يونان عارية من حرف الحلق، ومخالفة لسائر لغات الخَلق.

obeikandl.com